CEMÂLÎYÂTU'L-'İMÂRATİ'L-OSMÂNÎYE Fİ'L-CEZÂİR

جماليات العمارة العثمانية في الجزائر

الدكتور الشارف لطروش

Charef Latroch*

Aesthetics Of Ottoman Architecture İn Algeria

Abstract: The Ottomans Turks stayed in Algeria for more than three centuries, have left many areas in which effects can be classified into three categories are: -Religious architecture, which was in the mosques and its Annexes, and theangles and religious facilitie -Architecture, civil or residential, a building palaces and homes. -Buildings, public services, including Qaysarriet a commercial, professional. The Cities were crowded with palaces, castles, mosques and was engineered with exquisite ornaments and inscriptions elegant, made from raw marble, marble and ceramics. In mosques, Ottomans rulers were dye the walls strange colors.

Key words: era Otoman, architecture, Art, Algeria, palaces, Bathrooms, Housing, Mosques, Crafts, cities, construction

الخلاصة

مكث العثمانيون الأتراك في الجزائر ما يزيد عن ثلاثة قرون تركوا فيها آثارا عمرانية كثيرة يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أصناف هي:

- العمارة الدينية التي تمثلت في المساجد وملاحقها، والزوايا والمنشآت الدينية
- العمارة المدنية أو السكنية، وهي عمارة القصور والدور السكنية.
- مباني الخدمات العامة ومنها القيساريات وهي منشآت تجارية وحرفية.

وكانت المدن مكتظة بالقصور والقلاع والمساجد وكانت هندستها بديعة ذات زخرفات ونقوش أنيقة، من موادها الرخام والمرمر والزليج .

* Doç. Dr., Nusteğânım Üniversitesi, Cezayir (charef255@yahoo.fr).

وفي المساجد كان الحكام العثمانيون يصبغون الجدران بألوان عجيبة

الكلمات المفتاحية: العهد العثماني ـ العمارة ـ الفن الجزائر-القصور ـ الحمامات ـ المساكن ـ المساجد -الحرف ـ المدن ـ البناء

تقديم

مكث العثمانيون في الجزائر من سنة 1518م إلى سنة 1830م تركوا خلالها تراثا أدبيا تمثل في الأغاني والحكايات الشعبية المطبوعة بروح التصوف، والقصص الكثيرة عن حياة الرسول وآله والأولياء والصوفيين والأبطال، وقد كتبت بأسلوب بسيط للعامة من الفلاحين والجنود فيها تحفيز لهم على الإخلاص للدين والسلطنة.

ومن الزخارف التي برعوا فيها وعرفت شيوعا الأرابسك أو الرقش أو التوشيح أو التوريق و(هي مصطلحات كلها مرادفات لاسم واحد هو الزخرفة العربية المتكونة من فروع نباتية وجذوع مثنية ومتشابكة ومحورها من الطبيعة)[1]

وعملوا على تطوير الخط العربي بصفة عامة وأسبغوا عليه نوعا من القداسة باعتباره الخط الذي كتب به القرآن، حتى إن بعض سلاطينهم كان يمارسه على كبار خطاطي عصره[2]

ويرى محمد الطمّار بأن مدنا مثل بجاية وتلمسان وقسنطينة ومازونة لم تزل محافظة على ما ورثته من تراث فكري ونبغ فيها رجال خلفوا لنا علوما وأدبا، كما عرفت الحركة الفكرية في مدينة الجزائر نموا لا بأس به فيما يخص الفنون اللسانية والأدبية[3]

2 ـ جماليات العمارة العثمانية في الجزائر

أ ـ مفهوم العمارة والعمران والتعمير

هناك العمارة والعمران والتعمير، فالعمارة architecture، ويقابلها أيضا: ريازة وتعني فن التصميم المعماري، وفن تشكيل الأبنية والمنشآت والأوابد[4]

---

[1] ـ ينظر درياس لخضر ـ المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، دكتوراه الدرجة الثالثة (مخطوط)، معهد التاريخ، الجزائر 1989 ـ 1990م ، ص 252

[2] ـ ينظر أصلانابا ـ فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، استانبول،1987م،ص308

[3] ـ ينظر محمد الطمّار ـ تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط1981م ، ص273.

[4] ـ ينظر عفيف البهنسي ـ معجم العمارة والفن، مكتبة لبنان ناشرون، ط1 : 1995م، ص40

والعمران **urbanisme** ويترجم أيضاب(بتنظيم المدن)[5] ، ويعني تهيئة مجالات المدن وما يحيط بها وفقا لشروط وصفات جمالية ووظيفية واجتماعية، ومن الناحية القانونية نعني بالعمران مجموعة القوانين التي تربط استعمال الأراضي بتنظيم وتهيئة المجال الجغرافي للمدن.

وعند الغربيين العمران عملية أو مجموعة إجراءات تقنية واقتصادية تسمح بتطور عقلاني ومنسجم للمجال[1]

وأما التعمير فنعني به ظاهرة انتشار السكان للإقامة بعيدا عن المراكز الكبرى كالمدن تخفيفا على الضغط عليها وهي بذلك هجرة أو نزوح إيجابي نحو مناطق استقطاب جديدة للسكان

و(عمروا الأرض) : شيّدوا فيها المباني وسكنوها، و(يعمر مساجد الله): يشيدها، أو يقيم الشعائر فيها، و(نعمّره): نطيل عمره [2]، وفي قوله تعالى: (هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[3]، أي جعلكم تعمرونها، فالاستعمار هو التعمير، وأما فن العمارة فهو عملية الإبداع المصاحبة للبناء وإضفاء الجمالية على المنتوج المعماري.

ب ـ تصنيف العمارة العثمانية وجمالياتها

يمكن تصنيف ما خلّفه العثمانيون من بناءات ومنشآت عمراية إلى ثلاثة أصناف :

1 ـ العمارة الدينية تتمثل في المساجد وملاحقها، والزوايا والمنشآت الدينية.

2 ـ العمارة المدنية أو السكنية ، ويقصد بها عمارة القصور والدور السكنية ، وتتميز بالبساطة من الخارج والإنطوائية نحو الداخل ، وثراء البيئة الداخلية ، مع وجود فناء واسع تحيط به مجموعة من الغرف إضافة الى الإيوان الذي يعد أحد العناصر الهامة ضمن المسكن,

وكان البيت في العهد العثماني ينقسم الى قسمين رئيسيين هما : قسم الاستقبال أو "السلاملك" ويكون مخصصاً لاستقبال الضيوف فقط ، أما القسم الاخر فهو قسم المعيشة "الحرملك" وتكون مساحته أكبر من مساحة السلاملك ، إضافة الى قسم "الخدملك" في القصور والدور السكنية ، وهو خاص بالخدم

[5] . ينظر المرجع نفسه، ص40

[1] . ينظر pluridictionnaire,france1977,p1400

[2] . ينظر نبيل عبد السلام هارون . المعجم الوجيز لألفاظ القرآن، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1: 1977م، ص144.

[3] . سورة هود، الآية61

3 ـ مباني الخدمات العامة ومنها الخانات والمؤلفة من دورين هما الدور الأرضي المستخدم على شكل مستودعات للبضائع ومحال تجارية ومسجد وحمامات ودورات مياه ،كذلك هناك حظائر للدواب ، والدور العلوي الذي يشتمل على غرف نوم واستراحة للتجار.

ووجدت القيساريات واسمها مشتق من القيصريات وهي منشآت تجارية وحرفية عرفت عند الرومان لجباية الحرير الطبيعي القادم من الصين، وعرفت في العصور الإسلامية كمنشآت للتجارة والصناعة أساسا، ومساكن مؤقتة للفقراء أحيانا، وبها غرف تفتح على فناء داخلي وتتوزع على طابقين وأحيانا تحتوي على قبو بئر ماء .

والآثار المعمارية التي خلفها العثمانيون في الجزائر كانت خلاصة للتأثيرات العثمانية والأندلسية، فقد تزامن دخولهم مع الهجرات الأندلسية إلى الجزائر هربا من البطش الإسباني ومحاكم التفتيش التي طالت غير المسيحيين بعد سقوط الأندلس، وسكنوا مدنا قائمة مثل الجزائر ووهران أو زائلة مثل شرشال، وبنوا أخرى جديدة مثل البليدة والقليعة، وقد ساهم ذلك في دفع الفن المعماري إلى التطور والابداع..

وعن البناء والعمران العثماني يقول المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي : (وفي مجال الإنشاء والتعمير ما نشاهد بعضه اليوم منبتا في مختلف مدن الجزائر، فمؤرخو الإفرنج أنفسهم يشهدون بأنّهم وجدوا بالعاصمة يوم حلولهم بها ما يزيد على خمسة عشر ألف منزل وثمانية ألف حديقة محيطة بالمدينة، وستا وستين ومائة مؤسسة دينية، فكذلك قل في العواصم الجزائرية الكبرى مثل قسنطينة وتلمسان ووهران الخ...فكلها كانت مكتظة بالدور والقصور والقلاع والحصون والمساجد والمدارس والأسواق...)[1]

ودليلنا على أن مدينة الجزائر كانت صغيرة هو أن الرحالة لم يذكروها إلا نادرا، وأصبحت في ما بعد في العهد العثماني إحدى المدن العربية الكبرى، حيث ازداد عدد سكانها وكبرت مساحتها وتحولت إلى نموذج يمكن قراءة السياسة العمرانية العثمانية فيها[2].

وتلك المخلفات والآثار نجد أغلب موادها وعناصرها المتكونة منها مثل السواري الرخامية والمنابر المرمرية والزليج المزخرف المنبث في مختلف البنايا والمنشآت الجزائرية القديمة كل ذلك مستجلب من

[1] . عبد الرحمن الجيلالي . تاريخ الجزائر العام، ج3،ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982م، ص523

[2] . ينظر مصطفى أحمد بن حموش . الفصل الثالث من كتاب المدينة والسلطة في الإسلام، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ط1 ، 1999م.

الخارج، ولكن هذا لا يمنع من الإعجاب بحسن ذوق أصحابها الذين اختاروا لأنفسهم هذه الهندسة وهذه الأشكال البديعة المنسجم هذا من نقوش أنيقة وزخرفة وجمال[1]

ومن القصور المشهورة في مدينة الجزائر نذكر ما يأتي:

ـ قصر مصطفى باشا، و قصر دار الصوف،وقصر دار القادر، وقصر سيدي عبد الرحمن، ودار عزيزة باي " وهو قصر بنت القائد أحمد بن رمضان، وهو تحت وصاية وزارة السياحة حاليا" ، وقصر دار الحمرة تحوّل إلى دار للثقافة، وقصر أحمد باي وهو حاليا تحت وصاية المسرح الوطني، وقصر رياس البحر وله أسماء منها باستيون ، وهو ثلاثة قصور.

وقصر خديجة العمياء يقع أسفل حي القصبة بناه البحار التركي الشهير "خير الدين بربروس" في ربيع **1546** واشتراه الخزناجي حسن باشا حيث تذكر الأساطير أن خداوج كانت فتاة جميلة أصابها العمى لإفراطها في استعمال الكحل، ولا تزال أعمدة القصر وأقواسه وفوانيسه شامخة.

و دار متحف الصناعة والحرف التقليدية بحي سوق الجمعة، وقصر حسن باشا وكان متصلا بجامع كتشوة، وقصر الباردو قرب قصر الشعب وهو اليوم متحف للتاريخ .

ومما جاء في وصف الرحالة الإسباني هايدو(ت **1580**م) لبعض المعالم الجزائرية قوله : (لقد انتشرت بها ـ الجزائر ـ القصور المشيّدة على الطراز الأندلسي التي كان يجلب لها الرخام من إيطاليا وقد عجت هذه القصور بأجمل ما أبدعه الفن الأوربي من تحف، والتي كان يسلبها القراصنة من السفن الأوربية)[2]

و في مجال بناء المساجد والجوامع استلهم العثمانيون من الكنائس البيزنطية طريقة بناء خاصة أضافوا عليها المنارات وزينوها من الداخل بالزخارف الإسلامية، وكان كل سلطان يريد أن يخلد اسمه يتفنن في بناء جامعه.

ومن الروائع العمرانية التي تركها العثمانيون في الجزائر المساجد وقد حطم الاستدمار بعضها وغيّر[2] فيها ونهب أكثر موادها الثمينة التي كانت تزينها ويحولها إلى كنائس كما فعل مع مسجد كتشاوة ومسجد حسن باي بقسنطينة.

[1] ـ المرجع نفسه، ص534

[2] ـ عبد الرحمن الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام، ج3، ص532

فقد كان الحكام العثمانيون يجمعون لتلك المساجد المرمر والرخام والبلور، ويضعون القباب العظيمة في الوسط، وتدور عليها قبب أخرى منمقة، ويصبغون الجدران بألوان عجيبة غريبة، ويكتبون أسماء الله وآياته وأنبيائه وخلفائه بالذهب الإبريز الصيان[2].

وفي بنائها عرف طرازان هما الطراز الأندلسي وجاءت سقوفه قرميدية حمراء أو خضراء ويتميز بالأقواس المعقوفة و الأعمدة اللولبية التي تكثر في قاعات الصلاة وهي شبيهة بمساجد غرناطة وغيرها من مساجد الأندلس، و الطراز العثماني تميزه بقببه الضخمة التي تغطي المبنى وقلة الأعمدة وضخامتها في قاعة الصلاة ، وتختلف المآذن في الطرازين . فالأندلسية والمغاربية كانت قاعدتها مربعة ، والعثمانية مآذنها مدببة قواعدها دائرية أسطوانية أو متعددة الأضلاع. و لذلك يمكن(التفريق بين المذهبين المالكي السائد، و الحنفي الذي جاء به العثمانيون من خلال طراز المساجد و نوع المآذن. لكنه في بعض المساجد نجد أن الطرازين قد امتزجا في فن معماري متميز مثلما هو الحال في مسجد على بجنين الذي بنيت قاعته وفق الطراز العثماني و مئذنته وفق الطراز الإفريقي [1] ..

أما الأحياء الشعبية فامتازت بشوارعها الضيقة مثلما هو حال حي القصبة بالعاصمة، وتعرف بالزنيقات وكل زنيقة تتميز بصناعة تقليدية معينة،منها صناعة النحاس والجلود. وهنالك معالم عمرانية قليلة للعثمانيين لا تزال باقية في مدن وهران وقسنطينة ومعسكر وملیانة ومستغانم والبليدة والمدية، منها في قسنطينة المدينة القديمة التي تمتاز بدروبها الضيقة وبيوتها المسقوفة وأسواقها المتخصصة بتجارة أو حرفة معينة، ولا زالت تحتفظ بتسمياتها القديمة مثل سوق الجزارين وسوق الحدادين وسوق الغزل، وكانت تحيط بالمنازل ساحات تسمى الرحبات مثل رحبة الصوف ورحبة الجمال. وكان في كل حي سوق يسمى السويقة تصغيرا له.

و يوجد في قسنطينة قصر أحمد الباي بناه تأثرا بما شاهده في رحلة الحج ودامت الأشغال به تسع سنوات على مساحة 5600م مربع، وقد حاول الاستدمار إضفاء المسحة الغربية عليه لكنه لم يفلح، ولا تزال زخرفت ونقوشه الأصلية صامدة.

وهناك جوامع طالتها يد العبث الاستدماري منها جامع سوق الغزل، وجامع سيدي لخضر، وجامع سيدي الكتاني.

[1] ينظر ألبير ديفولكس، مساجد مدينة الجزائر في العهد العثماني، تحقيق مصطفى بن حموش، دار الأمة، الجزائر،2007م

[2] ـ ينظر عبد الرحمن الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام، ج3، ص 528 ـ 529

ويوجد بالمدينة حوالي عشرين حماما يقصدها السكان ويفضلونها على الحمامات الحديثة منها حمام الهوا.

وفي وهران قصر الباشا التركي الذي بني في القرن الثامن عشر، وهناك آثار أخرى في المدينة.

وقد استخدم الفنانون في تزيين المحاريب والنافورات وشواهد القبور والمباني نبات السرو، وأزهار القرنفل وشقائق النعمان والسوسن وعباد الشمس والأقحوان وغيرها.

.....

1 ـ نماذج معمارية جزائرية من العهد العثماني

.....

2 ـ جانب من قصر خداوج العمياء

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

1 ـ أصلانابا ـ فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد محمد عيسى، استانبول،1987م.

2 ـ ألبير ديفولكس، مساجد مدينة الجزائر في العهد العثماني، تحقيق مصطفى بن حموش، طبع دار الأمة، الجزائر 2007م.

3 ـ درياس لخضر ـ المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، دكتوراه الدرجة الثالثة (مخطوط)، معهد التاريخ، الجزائر 1989 ـ 1990م

4 ـ عبد الرحمن الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام، ج3،ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1982م

5 ـ عفيف البهنسي ـ معجم العمارة والفن، مكتبة لبنان ناشرون، ط1 : 1995م.

6 ـ محمد الطمّار ـ تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،ط1981م .

7 ـ مصطفى أحمد بن حموش ـ الفصل الثالث من كتاب المدينة والسلطة في الإسلام، مركز جمعة الماجد للثقافة والترات، دبي، ط1 ، 1999م.

8 ـ نبيل عبد السلام هارون ـ المعجم الوجيز لألفاظ القرآن، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1: 1977م

9 ـ Larousse pluridictionnaire,france1977